غادة شبير في «مسرح المدينة»: موشحات من ماضي الأندلس

سحر طه

أحيت الفنانة الأكاديمية غادة شبير حفلين غنائيين الثلاثاء والأربعاء الماضيين، في قاعة «مسرح المدينة» غنت فيهما محتويات ألبومها الأندلسي «الموشحات» الصادر عن شركة «فوروارد ميوزيك» في بيروت.

أن يُطرح «الموشح»، اليوم بالذات في أسطوانة، ومن قبل مغنية عربية، لبنانية، قد يعتبره البعض مجازفة أو نوعاً من ترف وفي أفضل الأحوال سباحة عكس التيار. لم تكن الفنانة لتقدم على هذه الخطوة لو لم تكن بمساندة شركة قد تعتبر وحيدة في هذا المجال، إذ بدا انها درست، وقصدت هذا التميز عن شركات إنتاج أخرى، لتروج لهوية عربية بات لها حضور في الغرب أكثر منه في الشرق.

فهذا اللون الغنائي الذي انطلق من ثورة شعرية أندلسية في نهاية القرن العاشر، ليصبح نمطاً غنائياً شعبياً سائداً لفترة طويلة، قبل أن يطويه الزمان في طيات الحروب والنسيان، وما وصلنا منه ليس سوى شذرات خلابة تدل على بقايا عبقرية تلحينية وغنائية، أكثر منها شعرية، وبات الموشح في يومنا «غناءً رجعياً» في نظر البعض، أو لنخبة من المتخصصين في الأدب والموسيقى وبعض الذواقين الباحثين عن الجذور والأصالة.

عدد من حضور الحفل تساءل عن الأعمال التي سمعها، ماذا يعني موشح؟ ماذا سمعنا؟ أو لم نفهم كلام الأغاني. أو هذه أغنيات بطيئة.... إلخ. بالطبع من لم يعرف عن الموشح من قبل لن يستسيغه من المرة الأولى. أو من الصعب فهم وتقبل هذا النوع الغنائي بتعرجاته الكثيرة، طلعاته إلى أقصى درجات السلم وهبوطه إلى إدنى قراراته، إيقاعاته الغزيرة، البعيدة عن السائد، وغير ذلك من كثافة موسيقية يحويها كل موشح قد يدوم بعضها دقيقة وبعضها الآخر عشر دقائق. والإيجاب في الأمر أن بعض الحضور، خرج من الحفل، بتساؤلات، بفكرة وإن بسيطة، وبمعرفة عن أحد أنواع الغناء العربي الذي اندثر، أو كاد، بغض النظر إن كان يرغب في سماعه مستقبلاً أم لا.

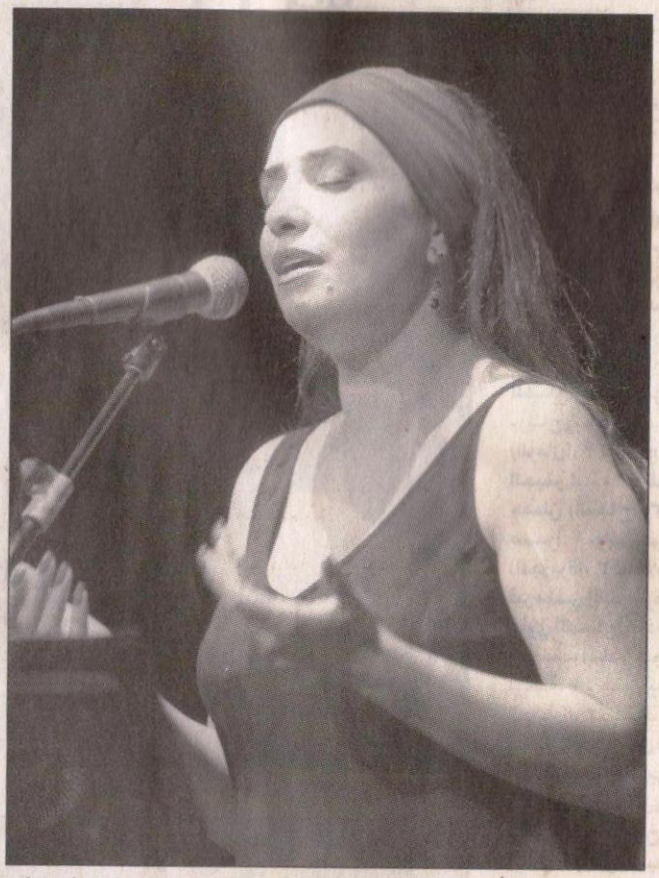

● غادة شبير في الأمسية (حسام شبارو)

اختارت غادة شبير «زبدة» الموشحات التي بقيت من الأندلس أو ما تم تلحينها في بلدان عربية مشرقية ومغاربية، منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأكثرها صعوبة، وشغلاً لحنياً مقامياً وإيقاعياً، قد تكون مقررة في السنوات الأخيرة من المعاهد الموسيقية العربية وقليلاً أو نادراً ما يتم تداولها ولن نستطيع في هذه العجالة شرح ماهية هذه التلوينات المقامية والإيقاعات المركبة الطويلة التي تضمنتها: فمن سيد درويش غنت «سلّ فينا اللحظ» و«منيتي عزّ اصطباري» و«حير الأفكار»، فيما غنت موشحات لم تثبت نسبتها حتى اليوم، فلم يعرف ملحنها مثل: «بدت من الخدر»، «هجرني حبيبي ولا ذنب لي»، «يا قوام البان»، «ما احتيالي»، «غضي جفونك»، «أهوى قمراً»، «قم بنا حان الحميا» و«هل على الأستار هتكٌ» وموشح مغاربي لخميس ترنان، «أيها المولع هيا». تخللت هذه الموشحات مواويل وبعض وصلات على مقام الحجاز والصبا وفلكلور على نغمة البياتي.

رغم إن هناك عدة موشحات كان الرحابنة وغيرهم أعادوا توزيعها، أو تلحين بعضها عرفت لدى العامة مع صوت فيروز مثل «يا شادي الألحان»، «يا غصن نقا»، «جادك الغيث»، وغيرها الكثير إلا أنها تعتبر من ضمن البسيط السهل الذي لا يرضي عشق غادة شبير، ولا صوتها العاشق أو المتعشق، لهذا الغناء الصعب المركّب، المعقد. تغني الموشحات في تطريب خاص بها، بصوتها المتقن للقفلات الصعبة (ختام الجمل اللحنية)، وللانتقالات العديدة بين مقام وآخر، ثم السير على وقع الموازين المركبة في دقة وحبّ متناهيين وهذا آتٍ من دراسة وخبرة أكاديمية وتعليمية طويلة، من دون لمس لحظة تأخر أو تعثر، بل العكس، سلاسة وليونة أداء في أشد المنعطفات خطورة، تُشعر سامعها غير المتخصص وكأن هذا اللون من السهولة والتلقائية بمكان.

فريق من العازفين الأكاديميين، كانت له بصمة راقية في إتقان وتهذيب نغمات الموشحات، بدءاً بالموسيقي شربل روحانا، إذ قاد الفرقة وأشرف على مراحل تنفيذ الأسطوانة إضافة إلى عزفه على آلة العود، وإذ اتبع العازفون أسلوب التخت الذي نفتقده، فارتجلوا كماً لا بأس به من التقاسيم كلّ على آلته، قابلها الجمهور بحماس في كل مرة، ما أظهر تعطشاً إلى سماع المقامات العربية، وأصوات الآلات الموسيقية منفردة، من ناي سمير سبليني وقانون جيلبير يمين وكمان طوني خليفة وباص عبود السعدي، والمبدع على آلة الرق علي الخطيب.